

لم تشرق الشمس على سناء منذ أكثر من خمسين يوماً، في مضجعا منذ أن استشهد زوجها في المعركة، فذلك الطفل الذي في أحشائها هو سببها الوحيد للاستمرار بالعيش في هكذا حياة، فقد كان التفكير بمستقبل ذلك الطفل أمراً مرهقاً ويدعو الى الجنون حيث أصبحت الأمهات مصانعاً لإنتاج الشباب الذين سيزج بهم من دون شك في غياهب المعارك اللامتناهية ليتم بعدها تكريمهم بقطرات من الحبر لكتابة أسمائهم في قائمة الوفيات اليومية، ستجبر على دفع المال ثمناً لقراءتها، ولكل اسم فيها صلاحية على وجوده في سنته ما إن ينتهي القارئ من ذكره على لسانه أو في أعماقه ولا يبقى ذكره الا على لسان المقربين. وكانت تلك الثمار لا تكاد تنتهي في شهر معين من أشهر السنة وكأن دمائهم فا تكاد تجد طريقاً يخلو من أصوات النحيب أو من تجمعات المواسين لتلك الأم التكلية أو الوالد الهرم، الموازين مقلوبة عن طبيعتها، فتجد أن الموت قد ترك الكبار ليهرموا ويكونوا الأكثر عدداً في مجتمعهم، وأن الشباب هم من بدأوا بالتفكير بمصيرهم القريب، متمنين أن يتخطوا تلك المرحلة ليضمنوا حياتهم، لم تهناً سناء بزواجها كثيراً، فقد انتظرت وزوجها لأكثر من ثمان سنوات حتى أصبحت حاملاً بطفلها الأول وما هي الا أشهر قليلة حتى أخذوا زوجها الى المعركة ليموت قبل رؤية ولده بشهرين فقط، هذا الفراق طويلاً فقد ودعت ولدها هي الأخرى يوم مولده، وترسم على شفيتها ابتسامة النصر ثم تموت ليولد الطفل باكياً، وحيداً في مواجهة ذلك العالم المرعب. نشأ ذلك الطفل في كنف جده الضريب، ذلك الجد الذي فقد بصره عندما كانت وكان مسمى الوطن يُحرك القلوب ويشعل فتيل المشاعر ويضفي القوة والفخر للقائل، تلك الصور التي كان يسترجعها ويهذي بها كشكل حتى أصر على أن يكون اسم حفيده وطن. عاش وطن مع جده مشوش فقد كان يقص عليه قصص التضحيات والصمود وكان يحدثه عن تاريخ مشرف بالإنجازات والتطور، أن الباد أصبحت مركزاً عالمياً للقوة والتقدم، وكان أكثر ما يؤذي تفكيره عندما يتحدث الجد عن الحياة الكريمة والترف الذي يعيشه الشعب، وكان الجد كان يرى الأمور ثم يسرد نقيضها الم يعيش وطن مرحلة الطفولة كما عاشها أقرانه، فقد أعطاهما لجد الكفيف حينما أصبح عينه التي ترشده في الطرقات الى أي جهة يريد انتهاءً بتوضيب كما عاش شعور ألم الفقد مبكراً، فما زال يذكر لحظة امتناع أصدقائه عن اللعب صباحاً بعد أن دخلوا المدرسة، تمنى لو أن والدته أنجبتة قبل عام من تاريخ مولده، ولم يعيش حزناً كحزن اليوم الثامن والعشرين من بدء فقد استيقظ على أصوات الانفجارات التي لم يعهد كانت تلك الأصوات رسالة قطيعة دائمية مع أصدقائه، فقد ذهبوا ضحية تلك المعارك التي أخذت الشباب من قبلهم، العدوان مدرستهم في الساعة السابعة وخمس و أربعين دقيقة، التلاميذ ليغردوا بالنشيد الوطني وقبل أن يفتحوا دفاترهم التي بكوا من أجلها كانت تلك الصدمة الاولى لوطن في حياته المبكرة، أن يفقد أصدقاء الطفولة بعد أن فقد حياة الطفولة من قبل. السنوات الست الأولى ما تعلمه لغيره في عشرين سنة، أصبحت مغامراته أكبر، كان الصف سبقوه في المدرسة، ومع مراجعته ومطابقته للصورة الذهنية وحقيقة الواقع الكتابة، لم يتلق أي إجابة منهم، جاعليه جعله من الوحدة هناك، حصل على كتبه المدرسية ليعلن مجبراً انضمامه الى رحلة وقد كان كتاباً وقراء، الصورة ذاتها التي سخروا منه بسببها، تلك الكتب التي كانت بحوزته، فقام ومن غير شعور بتمزيقها بحرقه وغضب، لم رشده، فقد عوقب على منتكس الرأس، فقد كان التفكير في الأمر وحده يدعو الى البكاء، فقد شعر بظلم كبير في مكان كان يجب أن يكون له مصدر للسعادة. كانت لحظات عصيبة عليه، دائماً ما يتحدث عن حظ جده في هذه الحياة، في ظل أشد الظروف ضراوة، وقد مات قبل أن يرى المجاعة التي حصلت في بلدهم أو يعيش قساوتها، تلك الحقبة وقد أصبح الناس بسبب نقص حتى ومنهم وقد وصل بكون حالهم، فالجوع يُرضي الأسود بالجيف. كان وطن يقضي أغلب قته منعزلاً في بيت جده مع كتبه التي يستعيرها الخارج، حتى من جارك، الماء. يسير وهو يتأمل حال الناس، ففي كل دقيقة يقضيها خارجاً كان يضيف الى ذاكرته قصة تشهد مأساة قوم أذلهم الزمان بعد عز، الخبز إلا في ذلك الزمن، باهتة، متأهين للانقراض على كل غريب يمر من هناك كفريسة سهلة المنال، لتبدأ بعدها الصراعات فالغنيمة الأكبر لا يستحقها هناك إلا صاحب القوة كان ذلك العجوز بصوته المبحوح وسعاله الذي يقطع رتابة أذنه الشمال، حقاً إن الموت لا يأخذ الى أعادت تلك الكلمات الى ذاكرته ما كان يسمع من جده من كلمات لا تمت حتى تسللت الى نفسه فكرة أن جده كان مصاباً بالخرف كذلك وأن خياله كان يعمل كمرحج محترف في تصوير المشاهد السعيدة التي ثم تعمق في تفكيره ليبدأ التشكيك في سبب إصابته بالعمى، أخبره حينها أن فقدانه لبصره جاء نتيجة ارتفاع في مرض السكري، يظن بأنه قد خسر بصره بسبب ضغوطات الحياة وصعوبتها، انقضت الساعة بطيئاً، فقد كانت مرهقة لعقل وطن قبل جسده، المكتبة انتهت بنهاية سلطة صاحب الصورة، لخرف جده وللعقول المغلقة التي خلفها صاحب الصورة، فقد تم اقصائه من منصبه بدخول قوات أجنبية الى الباد، لتبدأ حرب جديدة بعد جوع طويل، كانت الليلة الأولى مضيئة بشكل لافت فا تكاد تميزها عن النهار بسبب وابل القذائف والقنابل التي أحرقت كل شيء، وكانت أصوات القنابل المرعبة وصراخ الأطفال تذكره بأصدقائه من شهداء المدرسة وهو ينتظر بخوف تلك

اللحظة ولم يكن الصباح بأفضل حالٍ من تلك الليلة، فقد وكأنه قد صُهر في فرنٍ حراري، وقد أصبح رأسه منبعاً للدماء التي شقت بسيلانها نهراً أحمر اللون على ذلك تطورت تلك الحرب خال أسابيع قليلة لتدخل إلى عقول الناس وطرق قبل، واحتوت كلُّ فئةٍ على عدة مجموعات، يُسأل من قبل أصدقائه ومن الذين يتعرف عليهم عن الفئة التي ينتمي إليها، وبمرور الأيام علم أن والديه كانا من فئتين مختلفتين، وأن التفرقة التي أصبح عليها كطائر الببغاء الذي يردد ما يسمع دون أن يفكر بعقلانية فيما يقول، فقد الصفات المشتركة التي تمثل سبباً مقنعاً للعيش بسعادة وسام. يزداد فيه تباعد الناس وانعزال الفئات بعضها عن بعض، كان ذلك فرصة ذهبية للدول الطامعة بكنوز ذلك البلد، فقد صُنّف البلد ضمن قائمة الدول الأكثر ثراءً بالموارد، على العكس تماماً من التصنيف المعيشي كانت تلك الدول الطامعة تسير وفق استراتيجية "فرق تسد"، التي ستحتاج إلى أعوام لترسخ مبدأ الخضوع والانتماء في عقول الرافضين للتغيير، الوصول إلى المرحلة التي يتبناها الفرد كقضية ذات أولوية ويبدأ بتحريض الآخرين عليها، كانت كمراحل خروج الفراشة من شرنقتها، فما هي إلا أعوام قليلة حتى بدأت حربٌ أهلية بين أبناء ذلك البلد، فما كانت لشرائقهم إلا أن تلدحوشاً ضارية، تقتل دون تفكيرٍ أو سؤال، متناسين أن الاختاف هو سمة كونية كانت أياماً عصيبة على وطن، تجفّ عيناه يوماً بسبب المأساة التي عاشتها الباد حينها، فا يكاد يمر يومٍ إلا ويسمع بموت صاحبٍ أو صديقٍ أو قريب، الذي كان سنده بعد وفاة جده. وبعد أن زال صاحب الصورة، بأشكالٍ ورغباتٍ مختلفة، وأن من حولهم هم رعاغٌ لا جدوى من وجودهم سوى للعمل والتكاثر، وقد تمكنوا لأكثر من ست عشرة سنة وقد كانوا يشتركون كل من يساندهم على البقاء بما امتلكوه من أموال الشعب، وكان لدول الجوار الطامعة شأنٌ كبير في ذلك، فقد عقدوا معهم صفقة مفتوحة الأمد منذ اليوم الأول لإزالة صاحب الصورة تشمل تدريباً خاصاً لكبار مسؤولي الباد لإعادة برمجة ولائهم ثم تطور الأمر العمل في الخفاء بأيدي ناعمة وليسيطروا على أصحاب التفكير الوطني والواعين حتى أصبحوا بعد عدة سنين جزءاً أساسياً من أصحاب القرار في شؤون البلد، كان وطن يرى أن شعبه من أكثر الشعوب عاطفةً وصبراً، وكانت تلك هي وأن الفقراء وأن حالهم هو أفضل من حال الكثير من البلدان الأخرى، كانت كلماتهم تلك وهم يدعون الخشوع تقنع الكثير من فقراء البلد، عن الوقوف بجانبهم والتحدث عن ظلم العباد واستبداد السلطات، عن أكلٍ ومع مرور الأيام وانقضاء السنين، أصبح الكثير من أبناء ذلك البلد يفكرون با حاجزٍ أو رادع، فقد فكروا بصفتهم بشرًا ينتمون إلى بادٍ تلك كانت نظرة وطن إلى مجريات الأمور في الباد خال الحقة الفائتة كما رواها لصديقه فادي في أحد المقاهي، قوات مكافحة الشعب، اللقاء مساء كل سبت خال الاسبوع في هذا المقهى، وأثناء نقاشهم الطويل ذاك ظهر على التلفاز نبأ عاجل يتحدث عن قيام قواتٍ من الجيش برمي متظاهرين بالرصاص وقتل وإصابة العشرات منهم في إحدى الدول. ساد الصمت بين الاثنين لبرهة من الزمن، ثم انطلق صوت وطن قائلاً: ● لا يمكن أن يطلقوا تسمية "جيش تلك الدولة" على أولئك القتلة المأجورين،<sup>1</sup> قد يكونون مأجورين كما قلت، وقد يكونون مجبرين على فعلٍ ما يملئ ● لا عذر لمن يقتل الأبرياء، فكيف ببريء خرج ليسترد حقه ومظلوميته، القتل؟! ثم تخيل لو أنك كنت تواجه متظاهرين في بلدك، ما فعله أولئك القتلة؟ لكن لا أعلم إن كنت سأستطيع الصمود في موقفٍ كهذا إن حدث فعلاً، حيث اندفاع الأبرياء وضغط السلطات بإبعادهم! وطن، كان لهم النصيب الأكبر من التواصل ورؤية العالم المختلف، ذلك العالم الذي يعيش فيه من هم بأعمارهم أو أكبر منهم بقليل بفضل وجود الانترنت ومواقع فقد أدركوا أنهم مظلومون وأن لا خاص إلا بالخروج ومواجهة السلطة ضمن ما يسمح به الدستور، كان جيأً عظيماً بجرأته وصلادته واندفاعه نحو الموت دون تردد أو خوف، فا يمكن للعقل أن يصدق مشهداً يظهر فيه شاب وهو يواجه الرصاص بيدين عاريتين إلا من علم الباد إلا لو كان مشهداً تمثيلاً أو أن صاحبه يعيش في عالمٍ آخر! تردد وطن في المشاركة في هذه الانتفاضة، الصور السلبية عما سبقها من انتفاضات، قرر أن يذهب ساعة ليرى الصورة الحقيقية ثم يتخذ القرار الصحيح اعتماداً على نتائج الواقع. فقد كان للتفكير العميق دورٌ كبير في زيادة معدل ضخ الادرنالين مما تسبب ببطء حتى بدأ يسمع هتافات بعيدة واضحة التردد، كانت تزداد ارتفاعاً كلما اقترب وفي لحظة الوصول، فقد كان هناك الآلاف كأنه عرضٌ وتحدد مجموعاتهم التي ينتمون إليها، كانوا كشخصٍ واحد، جهور ثم لفتت انتباهه المجموعات الأخرى التي تعمل بهمة عالية، كمجموعة نحلٍ يعملون في خليةٍ واحدة، دون كللٍ أو كانت اللوحة المتكاملة الفريدة سبباً في خروج وطن مسرعاً من سيارته تاركاً كانت تلك الثورة مصدرًا لاستفزاز الفاسدين من مسؤولي البلد، المفردة، وتنظيمها المتقن، وخلوها من قيادة تتحدث باسم الشعب، مما أشعل حقد الطامعين وأظهر وحشيتهم بعد أن أصدرُوا أمرًا بتفريق المتظاهرين باستخدام القوة والرصاص، فلم فقد اعتبروا أن باستسامهم سيهينون دماء شهدائهم، لأجلها. في تلك الأثناء، ضحايا قبله، وأن الخوف من المطالبة بحقٍ هو إهانةٌ للنفس العزيرة، دفعت بيديه وبدأ يهتف بأعلى صوته بهتافاتٍ أرعبت الجبناء من حملة الساح، يطلقون النار على المتظاهرين العزل، عرف أن من كان يطلق تلك الرصاصات لم يكن من أولئك القوات التي تقف فقد شهد

مقتل صديقه الضابط فادي برصاصة اخترقت رأسه“ يبب. يبب” تلك كانت أول الأصوات التي استقبلتها أذنا وطن منذ فقد كان فاقداً لوعيه منذ لحظة سقوطه في ساحة ثم بدأت عيناه تتحرك برجفةٍ سريعةٍ محاولةً أن تروي ظمأها من الضوء، كانتا ثقيلتين بما يكفي لتجعه يستسلم عن فتحهما عند المحاولة منتظراً الساعات لتمر ويحاول من جديد، لكن الأمر كان خارجاً عن إرادته كان بحاجةٍ إلى دليل على أنه كان الانتظار مرعباً مع وجود تلك الأصوات التي لم يدرك مصدرها بعد، فهو لا يذكر شيئاً مما حدث. بعد ساعات من الانتظار، استقبلت أذناه أصواتاً جديدة، كانت أصوات وقع أقدام ترتفع بمرور الزمن حتى توقفت فجأة، وقام بانتزاع شيءٍ ما منها ثم بعد لحظات شعر بوغزة في مكان ما في تلك كانت وغزةً تدعو إلى الأمل والسعادة، المعطل ليعيد السيطرة عليه، وبعد المحاولة الثالثة بدأ النور يتدفق من جديد إلى عينيه، فبدأت الصورة تتحول من السواد إلى البياض ثم إلى صورةٍ ضبابيةٍ غير واضحة حتى استطاع أن يبصر صورة السقف الأبيض المائل للسواد، الأنايب الممدودة من أجهزة مختلفة إلى جسده وأنفه، ثم أدرك أيضاً أن مصدر الصوت الأول كان من جهاز نبضات القلب، قريبة للبحث عن سبب وجوده في هذا المكان. تلك الفتاة فقد اعتادت أن تأتي وتجلس بجوار قضاها في غيبوبته، كانت ناصعة البياض بما يكفي ليعرف أن الحادثة التي وقعت تركها تستقر من فرحتها وتجلس ثم سألها عن سبب حدث إطاق نارٍ كثيفٍ علينا في ساحة الاعتصام، إصابتي لا تذكر مقارنةً بأولئك الذين استشهدوا. الاعتصامات، الناس يُقتلون؟ هل قلت عزيمة فعدوا أدرأجهم؟ هل حققوا شيئاً؟ ماذا قال تلك الكلمات بانفعال ومشاعر أنسته بأن يوبخ ابنته بسبب ذهابها إلى هناك، وأنسته أيضاً بأن يسألها عن يدها إن كانت تؤلمها في تلك اللحظة، وعن فقد غطت ذاكرته من صور المتظاهرين وهتافاتهم على نظرت أمل في عيني والدها، بزفير يدعو إلى الاطمئنان، لكاهاها، ثم قالت: ● كان يوم سقوطي على يدي هو يوم انتصار الثورة، فقد شهد الشعب مساءً ذلك اليوم هروب أغلب المسؤولين الفاسدين إلى دول أخرى، ومن الجميع في ساحة الاعتصامات، لم يرض المتظاهرون ببقاء أيّ مسؤول قديم، فقد اعتبروهم جميعاً بأنهم انتخابات جديدة لاختيار مسؤولين يحملون الأمانة وحب الوطن، لاشك في أنهم سيكونون كفوًا لمهامهم، فهو القاضي والمقيم لأداء من يخدم هذا البلد. قاطع حديث أمل صوت مرتفع من الخارج، فنظرت إلى تعابير وجه والدها الذي بان عليه الارتباك من تلك الأصوات لتجيبيه ● لا تقلق يا أبي،